

التفسير المطول - سورة الزخرف 043- الدرس (05-09): تفسير الآيات 33-45 مباحج الحياة الدنيا زائلة والعاقبة للتقوى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 01-07-1994

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من سورة الزخرف.

الآيات التالية أصل في نفي الجبر:

مع الآية الثالثة والثلاثين وهي قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكئونَ (34) وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (35)

سورة الزخرف

هذه الآية أيها الإخوة أصل أيضاً في نفي الجبر، كما أن قوله تعالى:

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى دَافُوا بِأَسْنَانِهِمْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148)

سورة الأنعام

كما أن هذه الآية أصل في نفي الجبر عن الإنسان كذلك هذه الآية؛ لولا: إعرابها أو معناها حرف امتناع لوجود، أداة شرط غير جازمة، ولو: حرف امتناع لامتناع أداة شرط غير جازمة.

وَأَلْوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَهُمْ مَاءً غَدَقًا (16)

سورة الجن

الفرق بين (لو) و (لولا):

امتنعنا عن أن نسقيهم ماءً غداً لامتناع استقامتهم على الطريقة، حرف امتناع لامتناع، لو جئنتي لأكرمتك، امتنع إكرامي إياك لامتناع مجيئك، لكن (لولا) حرف امتناع لوجود، لولا المطر لهلك الإنسان، امتنع هلاك الإنسان لوجود المطر، الآية:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ عَزْ وَجَلِ لِبُيُوتِ الْكَافِرِينَ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ؟ طَبْعًا الْقَصْدُ لَجَمِيعِ الْكَافِرِينَ؛ فَهَنَّاكَ كَفَّارٍ فَقَرَاءٍ، وَبَعْضُ الْكُفَّارِ أَغْنِيَاءُ، أَمَا الْآيَةُ: لِمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لِكُلِّ كَافِرٍ بَيْتًا وَاسِعًا مَزْخَرَفًا فِيهِ مِنَ الْمَبَاهِجِ مَا لَا يَعِدُ وَلَا يَحْصِي؟

لِمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ بُيُوتَ الْكَافِرِينَ مِنْ فِضَّةٍ؟

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ﴾ تصور أن السقف كله من الفضة، في زماننا بعض البيوت سقوفها من الجبس فيقول الناس شيء بديع، مذهل، فكيف إذا كان فضة مزخرفة؟ من الفضة الخالصة المزخرفة المنقوشة.

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ المعارج هي الأدراج، يعني وأن يكون للبيوت أدراج فخمة جداً من الرخام ولها جوانب مزخرفة، أي أن كل شيء ممكن أن يرتفع مستواه إلى درجة مذهلة. ﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ *وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ والأبواب كلها من الفضة أيضاً. ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكُونُونَ﴾ السرر كذلك من الفضة.

﴿وَزُخْرَفًا﴾ والإنسان قد يدخل إلى بيت فيه فخامة، وفيه أناقة، وفيه زينة، وفيه اتساع، وفيه راحة، وفيه وسائل، وقال سبحانه: ﴿وَزُخْرَفًا﴾ أي أن السقف من الفضة المزخرفة، والأدراج من الفضة المزخرفة، والأبواب من الفضة، والسرر التي يجلسون عليها من الفضة، والبيت إجمالاً مزخرف، وبتعبير العصر يقولون: تزيينات.

الله تعالى لم يجعل الدنيا للكفار لأنه أصلاً لم يخلق للجنة أناساً وللنار أناساً:

ليس القصد الفضة بالذات، القصد أن الله عز وجل لو خلق الإنسان ليكون كافراً، ولم يُرِدْ منه الهدى، ولم يخلقه لجنة عرضها السماوات والأرض، لو أن الله خلق للجنة أناساً -كما يزعمون- وخلق للنار أناساً، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في الأصل كافراً، وخلق إنساناً آخر في الأصل مؤمناً، لو أنه فعل ذلك لجعل الدنيا للكفار؛ لهوانها على الله سبحانه، متى تعطي عدوك شيئاً؟ إذا كان هذا الشيء هيناً عليك، ولأنها هينة فقد شبهها النبي عليه الصلاة والسلام بشاةٍ ميتةٍ متفسخة فقال لأصحابه حين رآها:

أترون هذه هينة على أهلها؟ قالوا: نعم، قال: **للدنيا أهون على الله -عز وجل- من هذه على أهلها.**

والحديث الذي تعرفونه جميعاً يؤكد حقيقة شأن الدنيا، قال عليه الصلاة والسلام:

لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء.

الله تعالى جعل الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى:

الدنيا هينة على الله، لا قيمة لها، يعطيها لمن يحب ولمن لا يحب، بل في الأعم الأغلب يعطيها لمن لا يحب، من عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي.

إذاً (لولا) حرف امتناع لوجود، لماذا لم يعط الله للكفار ما يشتهون من زينة الدنيا؟ من متاعها؟ من مباحها؟ من بيوتها؟ من نسائها؟ من قصورها؟ من مركباتها؟ من مقاصفها؟ من بساتينها؟ من جناتها؟ ليس القصد البيت فقط، البيت وما يتبع البيت، البيت والبستان والمركبة، لِمَ لَمْ يعط الله جلّ جلاله للكافرين هذه المباح التي يصبو الناس جميعاً إليها؟ قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

الناس كلهم مخلوقون لهدف واحد ومدعوون لمعرفة الله:

قال: لأن الناس أمة واحدة، ما معنى أمة واحدة؟ أي مخلوقون ليؤمنوا هدفاً واحداً، مخلوقون لهدف واحد، مدعوون لمعرفة الله، مطلوبون للجنة، لو أن الله عز وجل خلق أناساً للنار وأناساً للجنة، خلق أناساً مؤمنين وأناساً كافرين، لو أن الله سبحانه وتعالى أجبر عباده على الكفر لم يكن هناك من حكمة في تعذيب الكفار في الدنيا، والتضييق عليهم، وسوق الشدائد لهم، لكن لأنه خلق كل خلقه ليسعدهم، خلق كل خلقه من نفس واحدة، ومن طبيعة واحدة، ولهدف واحد نبيل، لأن الناس كلهم خلُقوا لهدف واحد إذاً؛ سيعالجهم وسيضيق عليهم، ولا يعطيهم سؤلهم في الدنيا كما يريدون، بل يعطيهم ما ينبغي أن يعطيهم إياه كي يلتفتوا إلى الله عز وجل.

الناس أمة واحدة، من طبيعة واحدة، من بنية واحدة، من جِبِلَّة واحدة، أُودعت فيهم الشهوات ليرقوا بها إلى رب الأرض والسموات، أعطوا حرية الاختيار، رُودوا بعقل يدلهم على الله عز وجل، فُطروا فطرة نقية صافية طاهرة، خصائص واحدة، والهدف واحد، والطريق واحد، كل هذه المعاني تجمعها كلمة: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

الله سبحانه خلق الناس ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة:

يعني أنت ترضى من أب عنده خمسة أولاد أن يهيبى واحداً ليكون طبيباً وواحداً ليكون حاجباً، ويكون أحدهم دخله غير محدود وآخر دخله محدود، ويهيبى أحدهم ليكون عالماً، بينما يُبقي الآخر جاهلاً! الأب واحد، فهذا الشيء لا تقبله من أب أساساً، أن يوجه ابناً ليكون في أعلى مرتبة اجتماعية بينما يضع العراقيين أمام الآخر ليكون في الدرجة الاجتماعية السلفى، فهذا تصرف لا تقبله من أب، فالله عز وجل خلق الناس أمة واحدة؛ ليؤموا هدفاً واحداً، ليقصدوا الجنة وما أعد لهم فيها من نعيم مقيم، خلقهم جميعاً ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة، هذا المعنى الذي يليق بالله عز وجل ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

يَا عِبَادِي، كَلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كَلُّكُمْ جَانِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمَكُم، يَا عِبَادِي، كَلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسِكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُحْطِنُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضْرُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَتَقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفَجَرَ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَأَخْرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيضُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أَحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوقِفْكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ.

أخرجه مسلم عن أبي ذر

أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون وُفِّقْتُ في توضيح معنى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ جميعاً مطلوبون، جميعاً خُلِقْنَا للجنة، جميعاً خُلِقْنَا للسعادة، جميعاً يَخْفِزُنَا اللهُ عز وجل لنلتفت إليه، ونتقرب منه، فليس هناك عبد مخلوق للنار كما يدعي بعضهم، وعبد مخلوق للجنة، ليس هناك عبد قُدِّرَ عليه أن يكون كافرًا من الأزل، وكفَّرَ في الدنيا تنفيذاً لقضاء الله عز وجل، وسوف يُحَاسَبُ في الآخرة لأنه كفَّرَ بقضاء الله، هذه المعاني الجبرية ما أنزل الله بها من سلطان، إذا: امتنع امتاع الكفار في الحياة الدنيا لأنهم مخلوقون للجنة.

الدنيا دار عمل و تنافس و ابتلاء:

كذلك ليس من الحكمة أنه إذا إنسان خُلِقَ للجنة أن تمتعه في الدنيا إلى أقصى درجة، كما أنه ليس من الحكمة أن تجعل في الصف التعليمي المقاعد وثيرة جداً بحيث تصبح كالسرر، تتحرك كمقاعد الطائرات، فهذا ليس معقولاً لصف في مدرسة، فلو أن المقعد مريح إلى درجة أنه يصبح كالسرير بحركة ينام الطالب، هذا المكان مكان انتباه، مكان سماع محاضرة، مكان تفاعل مع المدرس وليس مكان

استلقاء، أيعقل أن يكون الصف فيه كل ما لذّ وطاب من الطعام؟ ليس من المعقول؛ لأنه يتنافى مع الغرض التعليمي.

فلو أن الدنيا هي كل شيء للإنسان، لو أن الدنيا ليس وراءها آخرة، فالمنطق يقول ألا يكون هناك عذاب أبداً، وليس هناك مشكلة غنى وفقير، ولا قوي وضعيف، ولا غني وفقير، ولا وسيم وديميم، ولا غبي وذكي، إذا كان إلهنا واحداً وخلقنا للدنيا فلماذا التفاوت؟ لا معنى للتفاوت، لكن لأننا خُلِقنا للآخرة ولجنة عرضها السماوات والأرض، وجئنا إلى الدنيا لتكون دار عمل، ودار تنافس، ودار ابتلاء لذلك هناك الشدائد، هناك الابتلاء بالعطاء والابتلاء بالمنع، هناك الابتلاء بالغنى والفقير، والابتلاء بالقوة والضعف، دار ابتلاء، دار عمل، دار كشف، دار توبة، دار إنابة إلى الله عز وجل، فلذلك التمتع يأتي عَرْضاً، ليس التمتع في الدنيا هو الأصل، والنبى عليه الصلاة والسلام يقول:

إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالمُتَنَعِّمِينَ

المسند لشعيب بسند ضعيف

الله تعالى عندما يعطي الدنيا للكافر لا لكرامته على الله بل لهوانه عليه:

إذا كان هناك إنسان يبني حياته على السرور، على الاسترخاء، على التمتع بالطعام والشراب وكل المباح، يقعد عن طلب الحق، يقعد عن طلب العلم، يقعد عن عمل صالح، فهذا الإنسان ما عرف حقيقة الدنيا بل جهلها، إذا ما الذي لم يجعل للكفار جميعاً بيوتاً فخمة، وبساتين غناء، وقصوراً رحبة، ومالاً وفيراً، وجمالاً ونكاهاً، لماذا؟ لو أنهم خُلِقوا للدنيا فقط، ولو أنهم خُلِقوا ليكونوا كفاراً، ولأن الدنيا هَيِّتة على الله عز وجل لو أنه أعطاهم لهم، طبعاً هناك حالات نادرة، هناك إنسان يُعطى الدنيا لا لكرامته على الله، بل لهوانه على الله، كما قال الإمام عليّ كرم الله وجهه: "فليُنظر ناظر بعقله أن الله أكرم محمداً أم أهانه حين زوى عنه الدنيا"

قضية السيرة النبوية تُعد أكبر قضية في هذا الموضوع، يعني سيد الخلق وحبيب الحق، سيد ولد آدم ولا فخر، سيد الأولين والآخرين، سيد الأنبياء والمرسلين، المخلوق الأول الذي أقسم الله بعمره الثمين، لم يسكن في بيت فخم، كان إذا صلى قيام الليل نحى السيدة عائشة جانباً حتى يصلني؛ لأن غرفته الصغيرة جداً لا تتسع لصلاته ونومها، كان إذا دخل بيته يقول:

هل عندكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم.

مسلم عن عائشة

بينما في بيوتنا لا يمكن ألا تجد شيئاً تأكله على الإطلاق، (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شربة ماء) لأن النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وكان فقيراً، قال:

لَقَدْ أَخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُودِيْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤَدَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ
ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُؤَارِيهِ إِنْطُ بِلَالٍ.

أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أنس

لا يليق بخالق الأكوان أن يخلق أناساً للنار وأناساً للجنة:

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وأنهم جميعاً مطلوبون، جميعاً مخلوقون لجنة عرضها
السموات والأرض، يريد الله أن يتوب علينا جميعاً، جميعاً يريد الله أن يبين لنا، أن يخفف عنا، هذا
المعنى يتناسب مع عظمة الله ومع كماله، إذا الإنسان ميّز بين أولاده يسقط، فإن كان هذا لا يليق
بإنسان أليق بخالق الأكوان! قد تجد الإنسان خطأ يميز بين أولاده أو عن غير قصد فيصبح أحدهم في
أعلى مرتبة اجتماعية، يعتنون بدراسته إلى حد أن يأخذ الدكتوراه، ويزوجه أجمل فتاة بأفخر بيت، وابن
آخر مهمل، مثل هذا الأب يسقط من نظرك، هذا ابنك وهذا ابنك، لم كل هذه العناية بزيد وقد حجبته
عن عبيد؟ ما ذنب الثاني؟ إن كان هذا لا يليق بإنسان مخلوق ضعيف، أليق بخالق الأكوان أن يخلق
أناساً للنار ولا ذنب لهم! وأناساً للجنة من غير سبب يدعو لذلك! فهذا المعنى لا يليق بحضرة الله عز
وجل.

﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ
عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ* وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

عطاء الله سرمدى وأبدي فهو الجنة لا الدنيا:

كلمة متاع تعني شيئاً وشيك الزوال ، كثيراً من الناس من اعتنى بكسوة بيته سنتين، ويوم انتهى
العمل في البيت توفى صاحبه ولم يسكنه، وهناك أشخاص نالوا أعلى الشهادات، وما استمتعوا بها أبداً
مات في المطار في طريق العودة إلى بلده، أناس كثيرون قُبِضت أرواحهم ليلة عرسهم، معنى ذلك أن
الدنيا هينة على الله عز وجل، بالمناسبة لا يليق بالله عز وجل أن تكون الدنيا عطاءً له؛ لأن الدنيا
منقطعة، كنت أقول دائماً أن الموت ينهي غنى الغني، إنسان ترك ثلاثين مليوناً، أربعين مليوناً، ألف
مليون، أربعة آلاف مليون دولار، هناك شخص يملك هذا المبلغ بدولة عربية، أربعة آلاف مليوناً، لا بدّ
من أن يموت فإذا مات ما مصير هذا المال؟ لم يعد له، انتهى أمره، فالموت ينهي غنى الغني وينهي
فقر الفقير، وقوة القوي، ووسامة الوسيم، وذكاء الذكي، ينهي كل شيء، إذاً لا يليق بالله عز وجل أن
تكون الدنيا عطاءً له، بل الله يعطي الشيء الأبدي السرمدى، عطاؤه الجنة.

الحياة الدنيا خيال ولا يبقى منها إلا العمل الصالح:

﴿وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متاع، كأن يأكل الإنسان وجبة طعام، فمدة استمتاعه بطعم الشيء ثوانٍ أثناء مضغ اللقمة، والحركة قبل البلع، واللسان يدفع اللقمة إلى سقف الحلق، وهناك أعصاب ذوق في هذه اللحظة تشعر أن هذه الطعام لذيذ، طبعاً بعد ثانية إذا انتقلت هذه اللقمة إلى المري فالمعدة، غدت الفلافل مثل اللحم في جوف المعدة، هي كلها ثوانٍ أثناء المضغ فقط، وبعد ذلك استوى الأمران، متاع.

يقال أحياناً: الدنيا خيال، يعني هذا العمر كيف مضى؟ لا أعرف مثل لمح البصر، انظر فالإنسان يولد ويُعتنى به، ويدخل المدرسة إلى كافة المراحل، ابتدائي، إعدادي، ثانوي، ويعيش في اهتمامات الدراسة، بعد ذلك يريد أن يتزوج، اهتمامات انتقاء الزوجة، ومن ثم جاءه أولاد، وتحولت اهتماماته إلى الأولاد، بعد ذلك زوج الأولاد، ثم لم يلبث أن تقاعد، ثم أصبح عرضة للعلل في جسمه فينتبه إلى السكر وغيرها وبعد ذلك تطبع ورقة الوفاة، وهي المرحلة الأخيرة، فالدنيا خيال؛ وكل ما فيها يمضي، ويبقى من العمل الصالح أجره ومن اللذة تبعثها، العمل يمضي، واللذة تمضي، يبقى من العمل الصالح أجره العظيم، ومن اللذة العابرة تبعثها ومسؤوليتها.

﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ﴾ الأبدية، السرمدية، الدائمة، المتنامية: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لمن اتقى الله في الدنيا، اتقى أن يعصيه، اتقى غضبه، اتقى سُخْطه.

أغلب آيات القرآن تتحدث عن الإيمان بالله واليوم الآخر فهما متلازمان:

فالملاحظ أيها الإخوة أن الله سبحانه وتعالى في أكثر الآيات التي تتحدث عن أركان الإيمان يأتي الإيمان بالله مع اليوم الآخر، طبعاً أركان الإيمان هي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله تعالى، لكن أكثر ركنين يتلازمان في القرآن: الإيمان بالله واليوم الآخر، إذا آمنت بالله من دون اليوم الآخر ينشأ هناك مئات التساؤلات ليس لها أجوبة، فمثلاً قوي وضعيف، يموت القوي قوياً، ويموت الضعيف ضعيفاً، وهناك إنسان لا يملك أن يفعل شيئاً وإنسان آخر بيده كل مقاليد الأمور، إنسان يملك أموالاً لا تأكلها النيران وإنسان يشتهي أن يأكل لقمة فلا يجدها، تجد المجاعات، فلو أُلغي الإيمان باليوم الآخر ينشأ مليون سؤال بدون جواب، لكن اليوم الآخر فيه تسوية حسابات.

إن الدنيا كلها تنطق بأسماء الله الحسنى، الكون كله يجسد أسماء الحسنى، لكن الدار الآخرة تؤكد عدالتها، تتم فيها تسوية الحسابات، مرة قرأت مثلاً أعجبنني: لو فرضنا أن أناساً جلسوا في مسرح والمسرحية بدأت، فإذا الأحداث تطورت إلى أن وصلت إلى عقدة ثم أرخي الستار، فلماذا يبقى الناس في مقاعدهم مع أن الستار أرخي؟ لأن الناس يعتقدون أن المسرحية لم تنته بعد، ما مصير القاتل؟ ما مصير هذا الذي خان؟ فالقصة لم تنته بعد، ونحن في الدنيا يأتي الموت والقصة لم تنته، هناك ظالم، ومظلوم، ومغتصب، وقاهر، ومقهور، مُستغَل ومُستغَل، ولقد مات الاثنان، ثم لا بدّ من يوم تُسوى فيه الأمور يعود

الحق إلى أصحابه، يُؤخَذ للمظلوم من الظالم، للضعيف من القوي، للمغتصب من المغتصب، فلذلك الإيمان بالله واليوم الآخر هما الركيزتان الأساسيتان لأركان الإيمان.

وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36)

سورة الزخرف

إعراض الإنسان بنفسه عن رؤية الحق و صم أذنيه لسماعه:

عشا يعشو، طبعاً الفعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والضممة دليل أن الحرف المحذوف هو الواو، وَمَنْ يَعِشْ أصل الفعل عشا، عشا لها معنى، وَعَشِيَ يعشى لها معنى آخر، عشي يعشى يعني لم يرَ بوضوح لضعف في بصره، هناك بصير وأعمى وأعور وأعشى، الأعشى ضعيف البصر، والأعور بعين واحدة، والبصير بصير، والأعمى أعمى، عشي يعشى لم يرَ حقيقة الشيء لضعف في بصره وهذا المعنى هنا غير مقصود، أما الفعل هنا فهو عشا يعشو، فما معنى عشا يعشو؟ أي أن الإنسان لم يرَ حقيقة الشيء لا لضعف في بصره، ولكن لرغبة في ألا يرى، أي يتعامى، يتعاشى، يُعرض بنفسه عن أن يرى.

معنى ذلك أن الله زوّدك بالعقل الذي يريك الحق حقاً، فأداة معرفة الله العقل السليم، كما أعطاك بصراً كي ترى آيات الله، أعطاك سمعاً كي تستمع إلى آيات الله، وأعطاك لساناً كي تسأل، بالعين ترى الآيات، وبالأذن تسمع الموعظات، وباللسان تسأل، وبالعقل تحاكم، ومع ذلك يعشو يعني يريد ألا يرى، يريد ألا يسمع، يريد ألا يفكر، فعشا يعشو، يعني عدم وضوح الرؤيا لا لضعف في عينيه، بل لرغبة في عدم الرؤيا، وهو لا يريد أن يرى.

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ يتعامى عن آيات الله، يتعامى عن الموعظة، يُتصامم عن سماع الحق، يعطل فكره، ولا يُعمله في الخير.

لا أحد يستطيع أن يضلّ أحداً أبداً:

﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِصَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ إخواننا الكرام، الإنسان بين إلهام ملك، وبين وسوسة شيطان، إذا كان الإنسان مع الله يأتي الملك فيلهمه، وإذا ابتعد عن الله عز وجل يأتي الشيطان ليوسوس له، لكن بالمناسبة لا أحد يتوهم أن الشيطان بإمكانه أن يضل الإنسان، لكن هناك توافق بين رغبة الإنسان في الضلالة والانحراف والمعصية، وبين وسوسة الشيطان له، توافق فقط، أما الشيطان فلا يستطيع أن يفعل شيئاً لقوله تعالى:

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (22)

يجب أن تعتقد أن الشيطان لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا كنت معتصماً بالله، إذا كنت مستعيذاً بالله، لكن الإنسان حينما ينقطع عن الله عز وجل ويتمنى الدنيا، فالشيطان أصبح رفيقاً له، رفيقاً يده على الشر، فالشيطان ليس له دور حقيقي، ولكن دوره من قبيل تحصيل الحاصل، لاحظ في المدرسة أن الطالب المنضبط، الأخلاقي، ذا التربية العالية لا يتأثر أبداً برفاق السوء، يظل بعيداً عنهم ويحتقرهم، لكن هؤلاء رفاق السوء يؤثرون بمن؟ بشاب منحرف في الأساس، شاب ضائع، شاب ليس عنده رادع ديني، فمثل هؤلاء الشباب يؤثر فيهم رفاق السوء وكخلاصة: لا أحد يستطيع أن يضل أحداً.

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28)

تحضير الأرواح مجرد كذب و دجل:

وقال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ هؤلاء الشياطين ماذا يفعلون؟ أحياناً يقال إنهم يقومون بتحضير أرواح، وهم بهذا يدجلون على الناس، حقيقة تحضير الأرواح أن هذا الإنسي المتعاون مع الجن يسأل قرين هذا المتوفى فيحدثه حديثاً مُسَهَّباً عن تفاصيل حياته، ويزعمون أنهم حضروا روح هذا الميت، الميت لا يأتي، ولا تُحضر روحه، ولكن هذا القرين الشيطاني للإنسان الذي مات كافراً، وهو يعرف كل تفاصيل حياته، إذاً يستعين الإنس أحياناً بالجن في معرفة تفاصيل حياة من توفاهم الله على غير ملة الإسلام.

وَأِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37)

هذا السبيل هو سبيل الله عز وجل، سبيل الجنة، سبيل السعادة في الدنيا والآخرة، مهمة الشياطين الصّدّ عن السبيل، والشيطان هكذا قال:

قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)

الشيطان لا يتحرك إلا عندما ينوي الإنسان السير إلى الله تعالى:

الملاحظ أن الإنسان مادام في المعاصي والموبقات والانحرافات ليس لديه مشاكل نفسية، وليس لديه وسوسة، ولا ضيق ولا كوابيس أبداً، لكن بمجرد أن يتجه إلى الله تقوم قيامة الشياطين، فمتى الشيطان يتحرك؟ حينما يُزِمع هذا الإنسان السير إلى الله.

قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْعَدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَا يَتَيْنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17)

سورة الأعراف

تارة يزين له الحداثة والتقدم والعلمانية والمجتمع والعلم، وتارة يزين له التقاليد البالية في تراث الآباء، ويكون في التراث المعاصي الكثيرة، وعادات كلها خلاف الدين، إما أن يأتيه من الحداثة أو من التقليد، أو عن شمائلهم وهي المعاصي، أو عن أيمانهم وهي الوسوسة، فدائماً يأتي الشيطان للمؤمن من باب أن يلقي في روعه أنك أنت لست مؤمناً، بل أنت منافق، أنت لا تحب الله عز وجل، يلقي في ذهنه خواطر سيئة جداً، فهذا الذي يفعله الشيطان، عن أيمانهم وعن شمائلهم، ومن بين أيديهم ومن خلفهم.

أخطر شيء في الحياة أن تتوهم أنك على حق وأنت على باطل:

﴿وَأِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ والحقيقة أن الخطر الأكبر في حياة الإنسان أن يتوهم أنه على حق بينما هو على الباطل، من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، ومنهم يدري ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبهوه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلموه، لكن أخطر واحد منهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري هذا شيطان فاحذروه.

المشكلة أن يكون الإنسان على باطل ويحسب أنه على حق، منحرف ويحسب أنه مستقيم، مُسيء ويحسب أنه مُحسن، مُفسد ويحسب أنه مُصلح، ضال ويحسب أنه مُهتدٍ، ماله حرام ويحسب أن هذا ذكاء وفلاح، يقتنص الشهوات ويحسب أنه ذو باع طويل في خبرات الحياة، هذه كلها أوهام لذلك:

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ
أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104)

سورة الكهف

المبتدع أحب إلى إبليس من العاصي لأن المبتدع لا يتوب لكن العاصي يتوب:

ضلَّ سعيهم وهم يحسبون أنهم مهتدون، يعني أخطر آفة في الإنسان أن يكون في وضع سيئ جداً ويتوهم أنه خلاف ذلك، المشكلة إذا الإنسان عرف نفسه أنه مقصر، أو عاصٍ أصبح باب التوبة أمامه مفتوحاً، لكن حينما يظن نفسه أنه على حق بينما هو على باطل فقد أُغلق عليه باب التوبة، وقالوا أيضاً: المبتدع لا يتوب، قالوا: الابتداع أحب إلى إبليس من المعصية، إذا الإنسان اعتقد عقيدة زائغة، فالشيطان يرحب بها أكثر من المعصية، لأن المعصية قد يتوب منها الإنسان ولأنها معروفة أنها معصية بالبدية، بالفطرة، بالنص، فكل من النص والفطرة والبدية تؤكد أنها معصية، فإذا وقع الإنسان في المعصية فاحتمال التوبة كبير جداً، لكن إذا وقع في عقيدة فاسدة بابتداع هذا لا يتوب، قالوا: المبتدع لا

يتوب، وقالوا: الكبائر هي ذنوب المبتدعين، والصغائر ذنوب المتبعين، فإبليس أحب إليه أن تبتدع من أن تعصي، لأن المبتدع لا يتوب، ولكن العاصي يتوب.

العلم هو الوصف المطابق للواقع وكل وصف خلاف الواقع هو جهل:

﴿وَأَنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ الحقيقة أن الشيء الخطير جداً أن تعتقد عقيدة غير صحيحة.

تعريف العلم: الوصف المطابق للواقع، أي أن تصف الشيء بما هو فيه، فكل وصف خلاف الواقع جهل، يعني لما الإنسان يحرص أن تأتي كل تصوراته وعقائده وفق الواقع معنى ذلك أنه على حق، أما خلاف الواقع فهو على باطل.

الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا، أحد الصحابة قال: "والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً"، وقال صحابي آخر: "والله لو علمت أن غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي"، يعني من نعمة الله الكبرى على الإنسان أن تتفتح بصيرته في الحياة الدنيا، وهذا الذي أقوله لكم الآن قلته سابقاً، يعني مشكلة الإيمان مشكلة وقت فقط، خيارك في الإيمان ليس خيار رفض أو قبول بل خيار وقت، لأنه لا بد لأي إنسان من أن يؤمن ولكن بعد فوات الأوان، بقي أن تؤمن قبل فوات الأوان، الإيمان سيحصل بقي أن تستفيد من إيمانك، بقي أن تؤمن في الوقت المناسب، بقي أن تؤمن وأنت معافي، وأنت صحيح، وأنت غني، وأنت قوي، وأنت حي، هذا هو الإيمان النافع.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38)

سورة الزخرف

شيطان الإنس أشد فتكاً وإضلالاً من شيطان الجن وكلاهما يُدعى قريناً:

كان هناك اتصال حميم، ولقاءات، واستشارات، والقرين كما قال العلماء: قد يكون من الإنس لا من الجن، ولما ربنا عز وجل قال شياطين الإنس والجن، فقد قدم شياطين الإنس على الجن تقديم أهمية، ربما كان شيطان الإنس أشد فتكاً وإضلالاً من شيطان الجن؛ لأن بينهما تجانس، صديق لصديقه، صاحب لصاحبه، إنسان مرح لطيف نكي ذلك على معصية، على انحراف، على بؤرة فساد، على مكان تُرتكب فيه المعاصي، وكلاهما شيطان الإنس أو الجن سماه الله قريناً.

هناك عداوة حال وعداوة مآل وعداوة المآل أخطر:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ هناك في الحقيقة عداوة حال وعداوة مآل، عداوة المآل أخطر، عدو الحال تتقيه، لك عدو يعيش معك تتقيه، تتقي اللقاء معه، تتقي أن تتحرك بتوجيهاته، تتقي أن تصاحبه، تتقي أن ينال منك، لأنه عدو في الحال، وهناك إنسان هو عدو في الحقيقة لكنك لا تعرفه عدواً، بل تعرفه صديقاً حميماً ودوداً محسناً ذكياً، فتلتقي معه فيأخذ بيدك

شيئاً فشيئاً - لا سمح الله ولا قدر - إلى طريق الهاوية، متى تعاديه؟ بعد الموت، لذلك لما ربنا عز وجل قال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِنْ تَعَفُّوا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)

سورة التغابن

بعض العلماء حملوا هذه الآية على عداوة المآل، يجوز وهو في الدنيا أن يحب زوجته حباً جماً، فقد تحمله على معصية وقد تدفعه إلى الكسل والقعود عن طلب العلم، وقد تزين له الدنيا، وقد يرضيها ويعصي ربه وهو مستمتع في حياته الدنيا، أما إذا جاءه الموت يُخلق في نفسه عداوة لهذه الزوجة لا حدود لها، لماذا؟ لأنها سبب شقائه، وسبب دماره، فهذه عداوة مآل لا عداوة حال.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

سورة الزخرف

كل إنسان أودع الله فيه عقلاً يدنيه أو يرديه وهو مأخوذ بأفعاله الاختيارية:

قد تدعي أن المسؤولية على فلان، لا، كل إنسان محاسب عن نفسه، وكل إنسان أودع الله فيه عقلاً.

اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (14)

سورة الإسراء

وقال:

قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (27) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)

سورة ق

فلما يقع الإنسان بمخالفة كبيرة ويُلقي عليه القبض متلبساً بهذه الجريمة، فما ينفعه أن يقول فلان دلني على هذا، فلان أغواني، هذه كلام لا يُسمع منه، والإنسان مأخوذ بأفعاله الاختيارية.

وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (39) أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (40)

سورة الزخرف

الإنسان مخير وكل إنسان له اختيار:

هذا الذي أصمّ أذنيه عن سماع الحق مختاراً، وهذا الذي أغمض عينيه عن رؤية الآيات مختاراً، وهذا الذي عطّل عقله عن إجراء المحاكمة المنطقية اختياراً، أغلق عينيه عن رؤية الآيات مختاراً، وأصمّ أذنيه عن سماع الحق اختياراً، وعطّل عقله عن إجراء المحاكمة اختياراً، هذا إذا اختار الضلال، واختار الشهوة، واختار الدنيا لا يستطيع أحد - وفيهم رسول الله - أن يهديه إلى سواء السبيل لماذا؟ لأن الإنسان مخير، كل إنسان له اختيار:

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۗ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۗ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۗ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (258)

سورة البقرة

من هنا قوله تعالى:

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)

سورة القصص

الإنسان مخير، فإن لم يشأ الإنسان الهداية فلن يهتدي، ولا أحد يستطيع أن يهديه إلى سواء السبيل، فأعظم الناس سيدنا النبي وقد رأى عمه:

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1)

سورة المسد

عمه ما رأى كماله، ومنطقه، وحجته، ونورانيته، وصدق دلالته؟ ما رأى ذلك، أفأنت يا محمد: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّمَ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لا تستطيع.

النبي بلغ الرسالة لكن تلقي التبليغ والعمل به بيد الإنسان لا بيد المرسلين:

أما قوله تعالى:

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۗ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52)

سورة الشورى

يعني أن دعوتك حق، والنبي يبلغ، أما الاستجابة فصاحبها مخير، التبليغ وقع وهو حق لكن تلقى هذا التبليغ والعمل به هذا بيد الإنسان لا بيد الدعاة ولا المرسلين، الآن:

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41)

سورة الزخرف

إن كل إنسان يتمنى أن يرى نهاية القوي الظالم، يتمنى أن يرى نهاية المنحرف الذي أخذ أموال الناس بالباطل، الذي بنى مجده على أنقاض الناس، الذي بنى حياته على موت الناس، الذي بنى غناه على فقر الناس، الذي بنى أمنه على خوف الناس، يتمنى أن يرى إحقاق الحق، لكن الله عز وجل يسلي نبيه فيقول: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾.

على المؤمن أن يكون عمله مطابقاً لمنهج الله عز وجل:

قبل أن ننتقم منهم فلا ضير، وأنت عزاًؤك أنك على الحق، كفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، وهناك أشخاص يقولون أين الله عز وجل؟! الله موجود، المهم أن تكون أنت على الحق، أن تكون على الصراط المستقيم، أن تكون على المنهج الصحيح، أن يكون عملك مطابقاً لمنهج الله عز وجل، أما الكافر فالله انتقم منه أم لم ينتقم فليس هذا من شغلك، قال تعالى:

لَا يَغْرَنَكْ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (197)
لِكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
لِّالْبَرَارِ (198)

سورة آل عمران

وقال:

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42)

سورة إبراهيم

وقال:

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفاً وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (47)

سورة إبراهيم

وقال:

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (146)

سورة آل عمران

على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره:

المؤمن معنوياته عالية جداً، كل إنجاز عظيم أنه على الصراط المستقيم، أما أن الله عز وجل انتقم من الكفار أم لم ينتقم، أمهلهم أم قصمهم، فهذا ليس من شأنه، هذا فعل الله عز وجل، والمؤمن أديب مع الله لا يحشر أنفه فيما لا يعنيه، والنبى عليه الصلاة والسلام علمنا دعاء:

اللهم رَضْنَا بِقَضَائِكَ وَبَارِكْ لَنَا بِقُدْرِكَ حَتَّى لَا نَحْبَ تَعْجِيلَ مَا أَخْرَتَ، وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَلْتَ.

ضعيف الجامع

والإنسان يتمنى شيئاً أخره الله بأن يعجله، أو شيئاً عجله الله أن يؤخره، (اللهم رَضْنَا بِقَضَائِكَ وَبَارِكْ لَنَا بِقَدْرِكَ حَتَّى لَا نَحْبَ تَعْجِيلَ مَا أَخْرَتَ، وَلَا تَأْخِيرَ مَا عَجَلْتَ) سَلِّمْ أَمْرَكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَهَذَا مَا خَاطَبَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ﴾ وسواء ذهبنا بك، أم لم نذهب بك فلا بدّ من أن ننتقم منهم، في عاجل أمرهم أم في آجله.

أَوْ نُرِيَّتْكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42)

سورة الزخرف

قضية زمن فقط، هذا تعبير مستخدم الآن؛ قضية وقت، يعني صدر قرار بتتحيته مع وقف التنفيذ، ينتظر الوقت المناسب، القرار صدر بقي أن يُنفذ هذا القرار بالوقت المناسب، فالقضية منتهية يا محمد لا تقلق.

العبرة في العاقبة:

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ* أَوْ نُرِيَّتْكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَأِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾ لهذا

عليه الصلاة والسلام قال لعدي بن حاتم:

لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، (من فقرهم) فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف؛ ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم (يعني أن المسلمين كانوا ضعافاً جداً وأعداؤهم أقوياء)، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم.

السيرة النبوية لابن هشام

المؤمن فقير وضعيف ومستضعف ولا يريد شيئاً، والإنسان يقول ما هذا الدين أهله كلهم ضعاف، متخلفون، كما هو حال العالم الثالث اليوم.

(فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه) النبي عليه الصلاة والسلام في الهجرة تبعه سراقه، وبعد أن غاصت قوائم حصان سراقه في الرمال وقال يا محمد: أعدك ألا ترى مني ما تكره، فقال له:

كيف بك يا سراقه إذا لبست سواري كسرى.

ابن حجر في الإصابة

النبي ملاحق ومهدور دمه وضعت مئة ناقة جائزة لمن يأتي به ميتاً أو حياً، ومع ذلك كان واثقاً من نصر الله، ومن وصوله إلى المدينة، ومن إنشاء كيان إسلامي، ومن حرب الفرس والانتصار

عليهم، وأن يُؤتى بسواري كسرى إلى المدينة، وما لبث أن جيء بسواري كسرى وتاجه وسرواله، وكل ما يلبسه كسرى، سيدنا عمر قلبه بقضيب بيده احتقاراً له وقال: **إِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَدَّوْا هَذَا لِأَمْنَاءِ**، قال له سيدنا علي: **يا أمير المؤمنين عفتت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا، ثم قال: أين سرقة؟ وجيء بسراقة فألبسه تاج كسرى وقميص كسرى وسواري كسرى، وقال: بخ، بخ، أعيرابي -تصغير أعرابي- من بني مدالج يلبس سواري كسرى، وتحققت نبوة النبي عليه الصلاة والسلام.**

العبرة للأخرة، العبرة للعاقبة، الله عز وجل قال:

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128)

سورة الأعراف

وقال:

أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)

سورة الزخرف

سواءً أنتقم الله من الكفار أم لم ينتقم، أحاسبهم في الدنيا أم لم يحاسبهم، رأيت نتائج أعمالهم أم لم تر.

التمسك بالحق ينبغي أن يكون لأنه حق فقط ولا ينبغي أن يعلق على قوة المسلمين:

قال سبحانه: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الآية دقيقة المعنى جداً، معنى الآية: يعني لا يحملنك على ترك الدين أن ترى المؤمنين ضعافاً، أو أن تراهم فقراء، أو أن تراهم معزولين، أو أن تراهم عزلاً من كل شيء، لحكمة بالغة تارة يقوي المؤمنين وتارة يقوي أهل الدنيا، فإذا جاء دورك في الحياة في عصر كان فيه المؤمنون مستضعفين، والقوة للكفار، فهذا الوضع لا يحملنك على عدم اتباع الدين.

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ إذا استمسكك بالحق لا ينبغي أن يُعَلَّقَ على قوة المسلمين، ولا على غناهم، ولا على أنهم بيدهم الأمر، استمسكك بالحق ينبغي أن يكون لأنه حق فقط، أقوى، ضعاف، مستضعفين، أغنياء، بيدهم مقاليد الأمور أم ليست بيدهم، فهذا لا يقدم ولا يؤخر، هذا معنى: ﴿فَإِمَّا نُنْزِبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ* أَوْ نُرِيكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ* فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾

يجب أن يكون الحق وحده سبباً لاتباعنا له:

انتقمنا منهم أم لم ننتقم، أريناك ما نعدهم أم لم نرك ما نعدهم فهو سواء، شخص يأتي بالقوة، إنسان يأتي بالمنطق، الحق حق إن كان أصحابه ضعافاً أو أقوياء، إن كان أصحابه أغنياء أو فقراء، إن كان أصحابه متمسكين بمقاليد الأمور أو متقلتين، فلا تجعل المظاهر سبباً لانصياعك، اجعل الحق وحده سبباً لاتباعك له.

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ: لهذه الآية معانٍ ثلاثة:

ثم يقول الله عز وجل: إن هذا القرآن الذي أوحى إليك:

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (44)

سورة الزخرف

1. أن هذا القرآن رفع من شأن النبي وأمته:

لهذه الكلمة معانٍ ثلاث؛ المعنى الأول: أن هذا القرآن رفع من شأن هذه الأمة، رفع من شأن النبي عليه الصلاة والسلام، أوحى إليه هذا القرآن، ورفع من شأن أمته، وهذا يؤكد قوله تعالى:

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4)

سورة الشرح

وكل إنسان يؤمن بالله عز وجل ويستقيم على أمره لا بدّ من أن يرفع الله له ذكره، هذا من عطاء الله في الدنيا، له اسم متألق، وسمعة طيبة، وشأن، وهيبة، ومكانة، هذا المعنى الأول.

2. الثاني أن هذا القرآن تذكرة للمؤمن بفطرته وبإيمانه:

والمعنى الثاني: أن هذا القرآن تذكرة لك، الإنسان بالفطرة مؤمن، الفطرة إذا انطمست يأتي القرآن ليذكر المؤمن بفطرته وبإيمانه.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ يعني كل ميزة وراءها مسؤولية، كل إنسان يرقى درجة يُحاسب بدرجة أعلى، ما دام هذا القرآن أنزل علينا باللغة العربية ونحن عرب فنحن محاسبون أشدّ من غيرنا.

3. أن في القرآن نماذج بشرية متعددة ومتباينة:

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ وأما المعنى الثالث: فكل من يقرأ القرآن يجد فيه وصفاً للناس، نماذج بشرية متعددة.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (16)
كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (17)

سورة الذاريات

هذا نموذج هل أنت منهم؟ لعلنا منهم أو لسنا منهم.

النماذج البشرية متباينة فعلى كل إنسان أن يعرف أي نوع هو:

ثم هناك نموذج آخر:

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (2)

سورة الأنفال

هل أنت من هؤلاء؟ أي أن الله ذكر نماذج؛ وهو ذكركم، وصف النبي بأعلى وصف

فقال:

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (4)

سورة القلم

وصف المؤمنين منهم سابق ومنهم مقتصد، ووصف الكفار أيضاً، ووصف المنافقين والفجار، كما وصف المؤمنين، والمنتقين، والصديقين، والأولياء:

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63)

سورة يونس

فأنت من أي هؤلاء؟ ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ إذا قرأت القرآن تعرف أين أنت من هؤلاء.

المعنى الأول: ذكركم أي رفع لشأنكم أنت وأمتك، هذا شرف لك ولقومك أن يأتيك هذا القرآن من عند الله عز وجل.

والمعنى الثاني: تذكير لك، فالفطرة عالية، تحتاج إلى تذكير.

والمعنى الثالث: أنك إذا قرأت القرآن عرفت أين أنت من هؤلاء المؤمنين، هل أنت مع المتقين؟ مع الصديقين؟ مع المؤمنين؟ مع المقتصدين؟ مع المقصرين؟ مع المذنبين؟ مع العصاة؟ تعرف أين أنت من هؤلاء.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عن كل شيء جاءكم في الدنيا.

يوم القيامة سوف تُسأل عن كل صغيرة وكبيرة:

آخر آية:

وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

سورة الزخرف

طبعاً الرسل ماتوا، اسأل أتباعهم.

الأديان كلها تدعو إلى التوحيد ومع ذلك فهم يعارضون:

﴿أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ فأنت يا محمد ما كنت بدعاً من الرسل، ما جئت بشيء لم يأت به الأنبياء من قبلك، أنت على شاكلة الأنبياء، ودعوتك كدعوتهم، والأديان كلها تدعو إلى التوحيد، فلماذا هؤلاء يعارضونك؟ هل جئت بشيء خلاف السابق؟

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجْعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾ ثم يقول الله عز

وجل:

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46)

سورة الزخرف

هذه القصة إن شاء الله تعالى نبدأ بها درسنا القادم.

والحمد لله رب العالمين.